فنون التعبير القرآني
في سورة الأنعام

م.د. عباس عبد الستار جاسم

ديوان الوقف السني / مديرية أوقاف الرصافة

الملخص

يهتم هذا البحث بدراسة الفنون التعبير في كتاب الله عز وجل ومن أهم الأسباب التي دفعتني باتجاه هذا الموضوع الكشف عن أسرار التعبير القرآني من خلال دراسة كتب التفسير القديمة والحديثة وكتب الإعجاز، وكتب البلاغة، وهي ثمرةٌ كبيرةٌ يستفاد منها في الدنيا والآخرة؛ وما أنا إلا باحثٌ وما سبيل الباحثين إلا المحاولة القائمة على الخطأ والصواب، ومن الله السداد والرشاد.

Abstract

This research is concerned with studying the arts of expression in the Book of God Almighty، and one of the most important reasons that pushed me towards this topic is to uncover the secrets of Qur'anic expression through studying ancient and modern books of interpretation، books of miracles، and books of eloquence، which are a great fruit to be benefited from in this world and the hereafter. I am only a researcher، and the only way for researchers is to try based on right and wrong، and from God is guidance and guidance.

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

المقدمة

الحمد لله ربَّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد الذي جعله الله أفضل من نطق بالضاد نطقاً محكماً، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغرّ الميامين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

وبعد

فإن كتاب الله هو أجل الكتب وأشرفها، نزل به جبريل الأمين على أشرف الخلق أجمعين، ليُخرِجَ العباد من الظلمات إلى النور، فهو الدستور الأعظم، والكتاب الأكبر، إليه يفزع المتقون إذا أصابهم شيءٌ، واظلمت الحياة في وجوههم، ومنه يأخذون الأحكام .

وعليه فقد استوقفتني سورة من سور القرآن؛ وقادني حبي لكتاب الله إلى أن يكون بحثي مرتبطاً به ولا سيما بيانه لأقف على شيء من إعجازه، فقد منّ الله عليَّ وهو ذو الفضل العظيم إذ وفقني إلى اختيار هذا البحث وهو (فنون التعبير القرآني في سورة الأنعام)؛ ليكون موضوع دراستي ومن الله المنة والتوفيق.

وكانت طبيعة البحث أن يقسم إلى مبحث تسبقه مقدمة وتليه خاتمة .

فإن أصبت فهو فضل من الله وإن طانت الأخرى فمن نفسي والشيطان وهو جهد إنساني يعتريه النقص والنسيان والله من وراء القصد.

واللهَ أسأل أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

المبحث الأول

الفنون التعبيرية في السورة

يستعمل القرآن الكريم بنية الكلمة استعمالاً فِي غاية الدقة والجمال، ومن ذلك استعمال القرآن الكريم الفعل والاسم استعمالاً فنياً فِي غاية الفنّ والدقة والجمال[1].

فمن المعلوم أن مصطلح الفعل عند النحاة: (ما دلّ على معنى فِي نفسه مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة)[2] . أو (حدث اقترن بزمان حصول الحدث، فهو يفيد الحدوث

(١) ينظر: التعبير القرآني: ٢٤ .
(٢) التعريفات: ١٣٧ .

المتجدد لهذا الحدث)[١] .

وسرّ دلالة الفعل على التجدد والحدوث هو أنّ الفعل مقيد بالزمن، فالفعل الماضي مقيد بالزمن الماضي، والمضارع مقيد بزمن الحال أو الاستقبال فِي الغالب في حين أنّ الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة . فهو أشمل وأعم وأثبت[٢].

وجاء في المغني لابن هشام: (أنهم يعبرون بالفعل عن أمور) [٣] .

أحدها: وقوعه؛ وهو الأصل .

والثاني: مشارفته؛ نحو قوله تعالى: ((وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ)) (البقرة: ٢٣١)، أي: فشارَفْنَ انقضاء العدة.

والثالث: إرادته؛ وأكثر ما يكون ذلك بعد أداة الشرط، نحو قوله تعالى: ((فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ)) (النحل: ٩٨) وهو التعبير بإرادة الفعل عن إيجاده، نحو قوله تعالى: ((وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ)) (النساء: ١٥٠)، بدليل أنه قوبل بقوله تعالى: ((وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ)) (النساء: ١٥٢) .

والرابع: والقدرة عليه، نحو قوله تعالى: ((وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ)) (الأنبياء: ١٠٤)، أي: قادرين على الإعادة، وأصل ذلك أنّ الفعل يتسبّب عن الإرادة والقدرة وهم يقومون السبب مقام المسبّب وبالعكس.

إنّ القرآن الكريم فِي استعماله للأفعال يعمد إلى استعمال أفعال تتلاءم مع حاجة السياق من حيث دلالتها.

فتراه يستعمل الأفعال المضارعة فِي المواقف التي تفيد الاستمرار، والتجدد، أو تفيد استحضار الصور والمشاهد البعيدة؛ كأنّها ماثلة أمام العين، وتسمعها الأذن، وهو ما يعبر عنه النحاة بـ (حكاية الحال الماضية)[٤] .

(١) شرح المفصل: ١ / ٢٢، والغرة المخفية: ١ / ٧١، والهمع: ١ / ٤ .
(٢) ينظر: معاني الأبنية: ٩ .
(٣) ينظر: مغني اللبيب: ٢ / ٤٩٨ . ٤٩٩ . ٥٠٠ .
(٤) ينظر: مغني اللبيب: ٢ / ٥٠١، والبرهان فِي علوم القرآن: ٣ / ٣٧٣، ومعاني النحو: ٣ / ٢٨٤ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

أمّا الاسم في التعبير القرآني (ما دلّ على معنى في نفسه غير مقترن بأحد الأزمنة الثلاثة، وهو ينقسم إلى: اسم عين، وهو الدال على معنى يقوم بذاته، كزيد وعمرو، وإلى اسم معنى، وهو ما لا يقوم بذاته، سواء كان معناه وجوديّاً كالعلم، أو عدمياً كالجهل)[1].

والأزمنة الثلاثة التي لا يقترن بها الاسم: الماضي، المضارع، والمستقبل، وهو يفيد الثبوت، ويستحق الإعراب في أول وضعه، وهو أشرف أنواع الكلام وأفضلها، وهو المقدم في دراسات اللغويين، والمتخيّر أولاً من بين الألفاظ في القرآن، وكلام الناس[2] .

فمن المعلوم أنّ الفعل يدل على الحدوث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت، تقول: هو يتعلم وهو متعلم . و (يتعلم) يدلّ على حدوث والتجدد أي: هو آخذ في سبيل التعلم بخلاف (متعلم) فإنه يدلّ على أن الأمر تم وثبت وأنّ الصفة تمكنت في صاحبها ومثله هو يحفظ وهو حافظ. و(يحفظ) يدلّ على الحدوث والتجدد و(حافظ) يدلّ على ثبات الأمر واستقراره في صاحبه ومثله وهو يجتهد ومجتهد[3] .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ((إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)) (الأنعام: **٩٥**) .

فاستعمل الفعل مع الحيّ فقال ((يُخْرِج)) واستعمل الاسم مع الميت، فقال تعالى ((مُخْرِج))؛ والسبب هو استعمال الفعل المضارع وذلك لأنّ أبرز صفات الحي الحركة والتجدد والنمو . فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد[4] .

وأمّا سبب استعمال الاسم مع ((الْمَيِّت))؛ لأن الميت فِي حالة همود وسكون وثبات. فجاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال ((وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)) . فلذا وقع

(١) التعريفات: ٢٧ .
(٢) ينظر: شرح المفصل: ١ / ٢٢، والهمع: ١/ ٤ .
(٣) ينظر: معاني الأبنية فِي العربية: ٩ و ١٢، والتعبير القرآني: ٢٤ .
(٤) ينظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٣١٢، والتعبير القرآني: ٢٤. ٢٥ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

التعبير عن القسم الأول بصيغة الفعل وعن الثاني بصيغة الاسم تنبيهاً على أنّ الاعتناء بإيجاد الحي من الميت أكثر وأكمل من الاعتناء بإيجاد الميت من الحي[١] .

وقد تقول: لماذا قال في سورة آل عمران بالصيغة الدالة على التجدد في الموطنين ؟ في قوله: ((قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)) (آل عمران: ٢٦ –٢٧).

فنقول إن السياق في آل عمران يختلف عنه في الأنعام وذلك إن السياق في آل عمران هو في التغيير والحدوث والتجدد عموماً . فالله سبحانه وتعالى يؤتي ملكه من يشاء، أو ينزعه منه، ويعزّ من يشاء، أو يذله، ويغير الليل والنهار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وغير ذلك من الأحداث .

فالسياق كله حركة وتغيير وتبديل فجاء بالصيغة الفعلية الدالة على التجدد والتغيير والحركة . في حين أنّ السياق في سورة الأنعام مختلف وليس السياق في التغييرات، وإنّما هو في صفات الله تعالى وقدرته وتفضله على خلقه[٢] .

قال تعالى: ((إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ)) (الأنعام: ٩٥) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ((ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ)) (الأنعام: ١٣١) وقوله تعالى: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)) (هود: ١١٧).

فقد جاء في الآية الأولى بالصيغة الاسمية ((مُهْلِك)) وفي الثانية بالصيغة الفعلية ((لِيُهْلِك))؛ وذلك أن الآية الأولى في سياق مشهد من مشاهد يوم القيامة عمّا كان في الدنيا . قال تعالى: ((وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ

(١) ينظر: روح المعاني: ٢٢٧/٧، والتعبير القرآني: ٢٥ .

(٢) ينظر: معاني الأبنية: ١١ وما بعدها، والتعبير القرآني: ٢٥ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ)) (الأنعام: ١٢٨ - ١٣٠) .

فإنهم اغتروا بالحياة الدنيوية واللذات المخدجة، وأعرضوا عن الآخرة بالكلية حتى كان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام للعذاب المخلد تحذير للسامعين مثل حالهم . وذكر أيضاً صفة الله سبحانه وتعالى وهو أنّه لم يهلك قوماً بظلم وهم غافلون لم يتكلفوا، ولم يأتهم رسل ينذرونهم . فهو في سياق أمر ثبت واستقر وانتهى فجاء بالصيغة الاسمية الدالة على الثبوت[1] . في حين أن الكلام في سورة هود على هذه الحياة وشؤونها، وذكر سنة الله في الأمم قال تعالى: ((وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ)) (هود: ١١٤ - ١١٦) .

(فهلاّ وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عمّا كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض)[2] .

فهو كما ترى في آيات سورة هود في سياق الدنيا وسنن البقاء فجاء بالصيغة الفعلية؛ لأنّ الأمم تحدث وتتجدد وتهلك ويأتي غيرها وهكذا . فجاء بالصيغة الدالة على الحدوث والتجدد ((لِيُهْلِك)). ثم انظر إلى الآية الأولى جاء بـ ((لَّمْ)) الدالة على المضي ((ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ))؛ لأنّ الأمر حصل وتمّ في الدنيا فهو ماضٍ بالنسبة إلى الآخرة

(١) ١ - ينظر: تفسير البيضاوي: ١/ ٣٢١، والتعبير القرآن: ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٨٥ .

. وجاء بـ (لام الجحود) التي تدخل على الفعل المضارع للدلالة على الاستمرار والتجدد، فقال عز وجل: ((وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى)) .

أمّا ما ختم به كلّ آية من الآيتين فله مكان آخر[١].

ومن ذلك استعمال القرآن الصيغة الفعلية في المواطن الدالة على الحدوث، قال تعالى: ((وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءتْ لاَ يُؤْمِنُونَ)) (الأنعام: ١٠٩) .

فجاء به بالصيغة الفعلية؛ لأنه هنا أمر دال على الحدوث لا الثبوت فإنه لم يحصل بعد[٢].

ومثله قوله تعالى: ((وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُواْ كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُواْ أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء أَلا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاء وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ)) (البقرة: ١٣) .

وقد استعمل الإيمان في القرآن بالصيغة الاسمية كثيراً؛ وذلك لأنّ الإيمان له حقيقة ثابتة تقوم بالقلب[٣] .

ومثال ذلك قوله تعالى: ((أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ)) (السجدة: ١٨). وقوله تعالى في سورة الأنعام: ((وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)) (الأنعام: ٢٧) .

وقد يستعمل في مكان ما صيغة ثم يعدل في مكان آخر عن تلك الصيغة فيحولها إلى صيغة أخرى بحسب ما يقتضيه السياق والمعنى. فمن ذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم «عليه السلام»: ((فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ)) (الأنعام: ٧٨) وقوله تعالى في مكان آخر على لسانه أيضاً: ((وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا

(١) ينظر: ملاك التأويل: ١ /٤٧٦، وانظر: الآية الخامسة عشرة من سورة هود من هذا المصدر، والتعبير القرآني: ٢٧ .

(٢) ينظر: الجامع لإحكام القرآن: ٧/٦٤، والبرهان في علوم القرآن: ٤/٦٧، والتعبير القرآني: ٣١ .

(٣) ينظر: التعبير القرآني: ٣٠ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

تَعْبُدُونَ)) (الزخرف: ٢٦) .

فانظر كيف عدل من ((بَرِيء)) إلى ((بَرَاء)) من الصفة المشبهة إلى المصدر (وأنت ترى الفرق بين المقامين فإن إبراهيم « عليه السلام » فِي آية الأنعام فِي مقام الحيرة والبحث عن الحقيقة لا يعرف ربّه على وجه التحقيق فقد ظنّ أنّ الكوكب ربّه ثم القمر ثم الشمس ثم أعلن البراءة من كلّ ذلك .

أمّا فِي الآية الثانية فهو فِي مقام التبليغ فقد أصبح نبياً مرسلاً من ربّه أعلن حربه على الشرك وأعلن البراءة مما يعبد قومه فهناك فرق بين المقامين والبراءتين)[1] .

وقال تعالى فِي آية الأنعام: ((بَرِيء)) وفي آية الزخرف: ((بَرَاء)) وذلك أن ((بَرَاء)) أقوى من ((بَرِيء)) فإنها براءة بصيغة المصدر الذي هو الحدث المجرد . فإن قولك (هو رجل عدل) أبلغ من قولك: (هو رجل عادل)؛ وذلك لأن معناه أنّه أصبح هو العدل، أي لكثرة ممارسته للعدل صار هو العدل نفسه . وقولك: (هو رجل سوء) أبلغ من قولك: (هو رجل سيئ) فمعنى رجل (سيئ) إنّه اتصف بالسوء ومعنى (رجل سوء) إنّه لكثرة ممارسته السوء أصبح هو السوء .

فالبراءة فِي آية الزخرف أشد . وكيف ناسب هذه القوة فِي البراءة والشدة بتوكيد الكلمة بمجيء (النون) أعني نون الوقاية فِي آية الزخرف فِي ((إِنَّنِي)) زيادة فِي التوكيد، ولم يأت بها فِي آية الأنعام بل قال ((إِنِّي بَرِيءٌ)) إنّ النون فِي مثل هذا المقام تفيد التوكيد[2] .

فانظر إلى جمال هذا التعبير ودقته وكيف أنّ القرآن كاللوحة الفنية الواحدة المتناسقة لوحظ فيها جزئية من جزئياتها واعتنيَ بكل لمسة من لمساتها وصدق الإمام الرازي إذ قال: القرآن كالسورة الواحدة بل الآية الواحدة[3] .

ونلاحظ الفرق بين لفظة ((جاء)) ولفظة ((أتى)).نحو قوله تعالى: ((حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ

(١) معاني النحو: ٩٨/١، التعبير القرآني: ٣٧ – ٣٨ .

(٢) ينظر: معاني النحو: ٩٩/١ .

(٣) ينظر: التعبير القرآني: ٣٨ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)) (يوسف:١١٠) وقوله تعالى :((وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ)) (الأنعام:٣٤) . فقال في آية يوسف ((جَاءهُمْ نَصْرُنَا)) وفي آية الأنعام ((أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)) ومن الواضح أن الحالة الأولى أشق وأصعب وذلك أنّ الرسل بلغوا درجة

الاستيئاس وهي أبعد من اليأس وأبلغ، وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذِبوا أي أن الله سبحانه وتعالى كَذَبهم ولم يصدقهم فيما وعدهم به وهذا أبلغ درجات اليأس وأبعدها وعند ذاك جاءهم نصره سبحانه وتعالى فنجي من شاء وعوقب المجرمون[١] .

وقد ورد في القران ((أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ)) و((جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ)) والساعة واحدة، فيتبين الفرق في قول الدكتور فاضل السامرائي حين قال: (وأقول ابتداء أنه لا يصح اقتطاع جزء من الآية للاستدلال بل ينبغي النظر في الآية كلها وفي السياق أيضاً ليصح الاستدلال والحكم)[٢] .

وإليك الآيتين اللتين فيهما ذكر الساعة :

قال تعالى: ((قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)) (الأنعام:٣١) وقال تعالى: ((قُلْ أَرَأَيْتُكُم إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)) (الأنعام:٤٠.٤١) .

ونلاحظ وبأدنى تأمل يتضح الفرق بين الآيتين . فإنّ الآية الأولى في الآخرة وفي الذين كذبوا باليوم الأخر وهم نادمون متحسرون على ما فرّطوا في الدنيا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم . وتوضحه الآية قبلها وهي قوله تعالى: ((وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُواْ عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُواْ بَلَى وَرَبِّنَا

(١) ينظر: تفسير أبي السعود :٢/٣٧٦، وروح المعاني :٧/١٣٧، ولمسات بيانية :٧٥ .

(٢) لمسات بيانية :٧٨ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

قَالَ فَذُوقُواْ العَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ)) (الأنعام: ٣١.٣٠) .

في حين أنّ الثانية في الدنيا بدليل قوله تعالى: ((أَغَيْرَ اللّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ)) (الأنعام: ٤٠) وقوله: ((بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاء وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ)) (الأنعام: ٤١) .

فذكر أنه يكشف ما يدعون إليه إن شاء، وهذا الأمر الذي يكشف في الدنيا وإلاّ فإن الله لا يكشف عن المشركين شيئاً في الآخرة ولا يستجيب لهم البتة[١] .

(فالموقف الأول أشق وأشد ممّا في الثاني فجاء بالفعل ((جاء)) دون ((أتى)) بخلاف الآية الثانية . فاتضح إنّ القران إنّما يستعمل ((جاء)) لما هو أصعب وأشق . ويستعمل ((أتى)) لما هو أخف وأيسر . ولعل من أسباب ذلك . إنّ الفعل ((جاء)) أثقل من ((أتى)) في اللفظ بدليل أنّه لم يرد في القرآن فعل مضارع لـ((جاء)) ولا فعل أمر ولا اسم فاعل ولا اسم مفعول ولم يرد إلاّ الماضي وحده، بخلاف ((أتى)) الذي وردت كل تصريفاته فقد ورد منه الماضي والمضارع والأمر واسم الفاعل واسم المفعول . فناسب بين ثقل اللفظ وثقل الموقف في ((جاء)) وخفة اللفظ وخفة الموقف في ((أتى)) والله اعلم)[٢] .

واستعمل صيغة ((الحمد)) بدل من ((نحمد أو أحمد)) كقوله تعالى: ((الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ)) (الأنعام: ١) .

وسبب استعمال ((الْحَمْدُ لِلّه)) فيها وجوه: منها أن قولنا (أحمد الله) أو (نحمد الله) مختص بفاعل معين . ففاعل (أحمد) هو المتكلم، وفاعل (نحمد) هم المتكلمون في حين أن عبارة ((الْحَمْدُ لِلّه)) مطلقة لا تختص

(١) ينظر: تفسير أبي السعود: ٣٧٢/٢ و ٣٨١، وروح المعاني: ١٣٢/٧ و ١٤٨، ولمسات بيانية: ٧٨. ٧٩.

(٢) لمسات بيانية: ٧٩ .

بفاعل معين لأنها جملة ابتدأت بمبتدأ وهذا أوّلى[١] . فقولك (أحمد الله) أخبرت عن حمدك أنت وحدك ولم تفد إنّ غيرك حمده، وإذا قلت (نحمد) أخبرت عن المتكلمين ولم تفد إنّ غيركم حمده في حين أن عبارة ((الحمد لله)) لا تختص بفاعل معين فهو المحمود على وجه الإطلاق منك ومن غيرك . وانك إذا قلت ((الحمد لله)) أفاد ذلك استحقاق الله للحمد وليس ذلك مرتبطاً بفاعل معين . وقولك: (أحمد الله) أو(نحمد الله) مرتبط بزمن معين لأنّ الفعل له دلالة زمنيه معينه فالفعل المضارع يدلّ على الحال أو الاستقبال ومعنى ذلك أن (الحمد) لا يحدث في غير هذا الزمان الذي تحمده فيه . وهكذا كل فعل يقوم به الشخص محدود الزمن فإنّ أقصى ما يستطيع أن يكون مرتبطاً بعمره ولا يكون قبل ذاك وبعده فعل، فيكون الحمد أقل مما ينبغي فإنّ حمد الله لا ينبغي أن ينقطع ولا يحدّ بفاعل أو بزمان في حين إنّ عبارة ((الحمد لله)) مطلقه غير مقيدة بزمن معين ولا بفاعل معين فالحمد فيها مستمر غير منقطع[٢] .

ومن ذلك أنّ (أحمد الله) جملة فعلية و ((الحمد لله)) جملة اسمية، والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدد في حين إنّ الجملة الاسمية دالة على الثبوت كما هو معلوم وهي أقوى وأدوم من الفعلية . فاختيار الجملة الاسمية أولى من اختيار الجملة الفعلية هاهنا إذ هو أدلّ على ثبات الحمد واستمراره[٣] .

وقد فرق الآلوسي بين ((الحمد لله)) و(له الحمد) فقال: (غير كون الثاني أوكد من الأول)[٤] .

وفي جملة (له الحمد) فيها تقديم، وهو تقديم الصلة ليفيد القصر لكون الأنعام بنعم الآخرة مختصاً به تعالى بخلاف جملة ((الحمد لله)) فإنها لم يجيء بها بتقديم الصلة حتى لا يفيد القصر لعدم كون الأنعام مختصاً به تعالى

(١) ينظر: إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: ٣٠، وروح المعاني: ٧٨/٧، ولمسات بيانية: ١١ .

(٢) ينظر: تفسير الرازي: ٢١٩/١، ولمسات بيانية: ١٢ .

(٣) ينظر: لمسات بيانية: ١٢ .

(٤) روح المعاني: ٧٨/٧ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

مطلقاً بحيث لا مدخل فيه للغير[١] .

وفي الآية نفسها جمع وإفراد وقد (جمع سبحانه وتعالى السماوات، وأفرد الأرض مع إنها على ما تقتضيه النصوص المتعددة متعددة أيضاً، والمؤاخاة بين الألفاظ من محسنات الكلام فإذا جمع أحد المتقابلين أو نحوهما ينبغي أن يجمع الآخر عنده)[٢] .

وقيل: جمع السماوات وأفرد الأرض؛ لأنّ السماء جارية مجرى الفاعل، والأرض جارية مجرى القابل، فلو كانت السماء واحدة لتشابه الأثر . والأرض فهي قابلة، والقابل الواحد كاف في القبول .

وحاصل القول: أنّ الاختلاف في الآثار دلّ على تعدد السماء دلالة عقلية . والأرض وإن كانت متعددة لكن لا دليل عليه من جهة العقل فلذلك جمعها دون الأرض[٣] .

وقوله: ((خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ)) الآية. (والفرق بين الخلق والجعل: (الخلق) فيه معنى التقدير وفي (الجعل) معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء أو تصيير شيء شيئاً أو نقله من مكان إلى مكان)[٤]، ومن ذلك ((وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)) (الأعراف:١٨٩) وقوله ((وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّور))؛ لأنّ الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، وقيل: اختيار لفظ الخلق للسماوات والأرض، ولفظ الجعل للظلمات والنور، ومنه قوله تعالى: ((هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا)) (الأعراف: ١٨٩) فإنّ الزوج وهو الأنثى مراعى في إيجاده أن يكون تكملة لخلق الذكر، ولذالك عقبه بقوله ((لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)) والخلق أعم في الإطلاق، ولذلك قال تعالى في آية أخرى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا)) (النساء: ١) ؛ لأنّ كلّ تكوين لا يخلو من تقدير ونظام .

(١) ينظر: المصدر نفسه: ٧/ ٨٠ .
(٢) المصدر نفسه: ٧/ ٨٠ .
(٣) ينظر: البحر المحيط: ٤/٦٨، وروح المعاني: ٧/ ٨١ .
(٤) الكشاف: ٢/ ٣ .

فالتفرقة بين فعل (خلق) وفعل (جعل) هنا معدود من فصاحة الكلمات . وإنّ لكلّ كلمة مع صاحبتها مقاماً، وهو ما يسمى في عرف الأدباء برشاقة الكلمة . ففعل (خلق) أليق بإيجاد الذوات وفعل (جعل) أليق بإيجاد أعراض الذوات وأحوالها ونظامها[١] .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)) (الأنعام: ١٥٣) .

واختيار كلمة ((صراط)) دون كلمة ((الطريق)) له سببه؛ ذلك أنّ ((صراط)) على وزن (فِعال) من (صِرط) وهو من الأوزان الدالة على الاشتمال . فيشتمل على كلّ السالكين ولا يضيق بهم فهو واسع رحب بخلاف كلمة (طريق) فإنّها (فعيل) بمعنى (مفعول) من (طرق) بمعنى مطروق وهذا لا يدل في صيغته على الاشتمال فقد يضيق بالسالكين ولا يستوعبهم .

وكذلك كلمة (السبيل) فهي كأنّها (فعيل) بمعنى (مفعول) من أسبكت الطريق إذا كثرت سابلتها، كالحكيم بمعنى المحكم[٢] .

وجاء في (التفسير القيم): (وذكر الصراط المستقيم منفرداً معرفاً بتعريفين، تعريفاً باللام وتعريفاً بالإضافة . وذلك يفيد تعيينه واختصاصه وأنّه صراط واحد . وأمّا طرق أهل الغضب والضلال . فإنّه سبحانه يجمعها ويفردها كقوله: ((وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ)). (الأنعام: ١٥٣) فوحّد لفظ الصراط وسبيله وجمع السبل المخالفة له... وهذا لأنّ الطريق الموصل إلى الله واحد. وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه لا يصل إليه أحد إلاّ من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كلّ طريق واستفتحوا من كلّ باب فالطرق عليهم مسدودة والأبواب عليهم مغلقة إلاّ من هذا الطريق الواحد)[٣] .

ومما يلاحظ أيضاً أنّ القرآن الكريم لم يأت بكلمة الصراط إلاّ مفردة فلم يستعملها

(١) البحر المحيط: ٦٨/٤، وروح المعاني: ٨١/٧، والتحرير والتنوير: ١٢٦/٧ . ١٢٧ .

(٢) ينظر: لمسات بيانية: ٤٥ .

(٣) التفسير القيم: ١٤. ١٥ .

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

مجموعة بخلاف السبيل . فإنّه يفردها ويجمعها ذلك أنّ الصراط أوسع السبل[1] .

الخاتمة

رب لك الحمد كما ينبغي لجلالك وعظيم سلطانك

١. إنّ للقرآن الكريم أسراراً لا يمكن حصرها فلا نهاية لوجود تلك الأسرار.

٢. إنّ لأساليب القرآن مزيةً خاصةً على غيرها من أساليب العرب .

٣. أظهرت الدراسة أنّه ما من تعبير في القرآن إلاّ وله قصدٌ معنىٌ وغرضٌ مقصودٌ أراده الله تعالى لحكمةٍ بالغةٍ.

٤. هناك تشابهاً واختلافاً بين آيات السورة نفسها، وإنّ لهذا التشابه والاختلاف أسراراً بَيَّنَها المفسرون والعلماء رحمهم الله تعالى.

أسال الله أن يوفقني لخدمة هذا الكتاب العزيز، ويجعلني في سلك الخادمين له، والباحثين فيه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) ينظر: لمسات بيانية: ٤٦ .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: الحسين بن أحمد بن خالويه، أبو عبد الله (ت ٣٧٠هـ) الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ - ١٩٤١م)، مصر .

٢. أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ه.

٣. البحر المحيط: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، المحقق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر - بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٤. البرهان فِي علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م .

٥. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ه.

٦. التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.

٧. التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م .

٨. تفسير ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ)، المحقق: سامي بن محمد السلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م .

٩. تفسير أبي السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

١٠. تفسير القرآن الكريم (ابن القيم): محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، المحقق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٠ه.

١١. الجامع لأحكام القرآن: أبو عبد الله، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

١٢. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت ١٢٧٠هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ

١٣. شرح المفصل: يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، المعروف بابن يعيش وبابن الصانع (ت ٦٤٣هـ)، قدم له: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشر: دار

ISSN: 2075 - 2954 (Print)

الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م

١٤. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧هـ .

١٥. لمسات بيانية: د. فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي، دار القلم، بيروت – لبنان .

١٦. معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م

١٧. مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (ت ٧٦١هـ)، المحقق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥ .

١٨. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ .

١٩. ملاك التأويل: أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي، أبو جعفر (ت ٧٠٨هـ)، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

٢٠. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية – مصر .